" الحمدوني "

قحطان رشـيد التميمي
مدرس في قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعـــة بغـــداد

أبو علي اسماعيل بن ابراهيم ، شاعر بصرى مجيد متفنن مـــن شعراء القرن الثالث الهجرى • وهو معدود بين كتّاب هذا القرن كذلك •

والمصادر التي تحدثت عنه لم تتوسع في ترجمة حياته ، فمولده ونشأته ووفاته أمور مهمة لم تشر اليها هذه المصادر اشارة دقيقة محددة • غير ان ابن الاثير يذكر ان الحمدوني هجا سعيد بن حميد الشاعر الكاتب – حين تولى الاخير رئاسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ هـ ، اذ قال فيه [١] :

لبس السيف ســـعيدا بعدمـــا عاش ذا طمرين لا يـــؤبه له
ان لله لآيـــــات وذا آية لله فينـــــا منزله

ولم يوضح الاستاذ محمد عبدالمنعم خفاجي كيف توصل الى ان وفاة الحمدوني كانت نحو عام ٢٦٠ هـ [٢] •

وفي اخبار اسرته ان جده حمدويه كان صاحب الزنادقة لعهـــد الرشيد [٣] ، ولعل اباه ابراهيم الملقب بحمدون – كما يظن ذلك ياقوت –

---

(١) ابن الاثير ٥/٣١٤ •
(٢) الحياة الادبية في العصر العباسي ٦٤ •
(٣) فوات الوفيات ٢٤ •

كان ممن نادموا المعتصم والواثق [٤] .

ان كثيرا من المصادر تلقبه «الحمدوني» [٥] وربما كان ذلك نسبة الى حمدون لقب ابيه كما تقدم . ويلاحظ ان ابن الرومي يذكر لقبه في شعره وينص على «الحمدوني» في معرض هجائه عمراً الكاتب الملقب بخرطوم اذ يقول [٦] :ـ

اغلقت حانوتي لطو ل كساده وفتحت عمرا
يا طيلسان الحمدو نيُّ شفعت فيَّ وكنت وترا
عمراً أخوك جعلته لي مكسباً فأفدت وفرا
لا تبعدا من صاحبي ـن لقيتما ضعة وفقرا

وهناك مصادر اخرى تلقبه «الحمدوى» [٧] واذا كان هذا اللقب من جهة جده حمدويه ، فهو نسبة على غير قاعدة ، اذ الصحيح فيه هو "الحمدى" وقد تلقبه بعض المصادر الاخرى «الحمدوني» و «الحمدوى» تارة اخرى [٨] .

---

(٤) معجم الادباء ١/٣٦٨ .
(٥) المصدر السابق ٦/١٤٢ ، فوات الوفيات ٢٤ ، ثمار القلوب ٢٧ ، ديوان المعاني ١/٢٧٨ ، خاص الخاص ١١٩ ، طبقات ابن المعتز ٣٧١ ، عيون الاخبار ٣/١٢٥ ، زهر الاداب ١/٥٢١ ، مروج الذهب ٤/٢٢٠ .
(٦) ذيل زهر الاداب ١٢٥ .
(٧) طيف الخيال ١١١ ، وفيات الاعيان ٦/٩٣ ، الاغاني ١٣/٢٣٥ ، مجموعة المعاني ١٠١ .
(٨) التشبيهات الصفحات ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٩٠ (الحمدوني) وفي الصفحات ٢٤٢ و ٣٨٦ يلقبه الحمدوني . وربما كان هذا دليلا على عدم تحرى القدماء عن لقبه الصحيح ، وربما كان هذا من اخطاء الناقلين والناسخين .

وابو علي شاعر مليح الشعر ، حسن التضمين ، ظريف العبارة ، رقيق الاسلوب ، جميل الصورة ، وقد عاصر من شعراء البصرة المشهورين عبدالصمد بن المعذل والجمّاز [٩] ، وكثيرا ما كان يجتمع اليهما ، وفي اخباره ما يدل على ميله الى العبث والمجون .

قال الحمدوني الشعر في فنونه لمعروفة ، ويبدو ان الوصف استغرق معظم شعره الى جانب مقطوعات في الهجاء والغزل والاخوانيات وابيات متفرقة تجرى مجرى الامثال السائرة .

وقد اشتهر صاحبنا بوصف طيلسان اخضر وهبه اياه محمد بن حرب [١٠] ابن اخي يزيد المهلبي ، فلم ترضه هذه الهبة ، كما اشتهر في وصف شاة اهداها اياها رجل يدعى « سعيد بن أحمد » ، وقد صار هذا الطيلسان عرضة لشعره ومثلا في البلاء والخلوقة [١١] .

وهو مثل مشهور بين الادباء ، فأذا كان الشيء باليا شبهوه بطيلسان ابن حرب [١٢] ، لكثرة ما قاله في نعته الحمدوني ، بأسلوبه الفكه الساخر ، وما عرف عنه من ظرف ودعابه ، ولعل الشاعر حذا حذو ابن حمران السلمي الذى وصف طيلسانه البالي اذ قال [١٣] :

يا طيلسان أبي حمران قد برمت ... بك الحياة فما تلتذ بالعمر
في كل يوم له رقّا يجدده ... هيهات ينفع تجديد مع الكبر
اذا ارتداه لعيد أو لجمعته ... تنكب الناس ان يبلى من النظر

---

(٩) الاغاني ٣١/٢٣٥ .
(١٠) هو احمد بن حرب كما في زهر الاداب ٢/١٠٤٥ .
(١١) ثمار القلوب ٤٨١ .
(١٢) الوفيات ٦/٩٣ .
(١٣) ثمار القلوب ٤٨٠ ، والوفيات ٦/٩٥ .

فقد يكون قول السلمي هو الاصل الذى حمل الحمدوني على ما قال في طيلسان ابن حرب [14] .

ويقال ان اول شعر قاله في الطيلسان ، هذه الابيات التي شبّه بها طيلسانه البالي بالشن الممزق والفتى الناحل [15] :

كساني ابن حرب طيلسانا كأنه ... فتىً ناحل بال من الوجد كاشنُ
يغنّي لابراهيم [16] لما لبسته ... « ذهبت من الدنيا وقد ذهبت مني »
ذهبت من الدنيا وقد ذهبت مني ... هوى الدهر لي عنها وولى لها عنى
فأن ابكِ نفسي ابكِ نفساً نفيسةً ... وان احتسبها احتسبها على ضنِّ

وواضح قصده الجناس في الشطر الاول من البيت الاخير بين كلمتي نفسي ونفيسة .

ومما قاله اسماعيل وسار عنه وتناقله الرواة هذه الابيات [17] :ـ

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا ... ملّ من صحبة الزمان وصدّا
فحسبنا نسج العناكب لو قيـ ... ـس الى ضعف طيلسانك سدّا
ان تنفستُ فيه ينشقُّ شقاً ... أو تنحنحتُ فيه ينقدُّ قدّا
طال ترداده الى الرفو حتى ... لو بعثناه وحده لتهدّى

فهو اذن طيلسان عتيق بال قديم قدم الزمان ، وهو بعد هذا ارق من نسيج العنكبوت الواهن ، حتى انه ليتمزق تمزقا ويتساقط قطعا لخلوقته ، لو أن مرتديه اهتز متنحنحا او نفخ فيه متنفسا .

---

(١٤) الوفيات ٦/٩٥ .
(١٥) الفوات ٢٤ .
(١٦) يريد ابراهيم بن المهدى .
(١٧) طبقات ابن المعتز ٣٧١ .

يقول الحمدوني : انا ابن قولي في الطيلسان : « طال ترداده ... » وهو يريد : اى اني عرفت به [18] .

ومن لطيف سخريته وجميل هزئه ، قوله ذاكرا قدم هذا الطيلسان وتداعيه وكثرة رقعه ، وانه يضع من قيمة مرتديه اى وضع ، هذا الى انه كان يتوقع في كل مرة ان يتداعى عنه متمزقا مفارقا الى غير لقاء [19] :

رأينا طيلسانك يا ابن حرب ... يزيد المرء للضعة اتضاعا
اذا الرقاء اصلح منه بعضا ... تداعى بعضه الباقي انصداعا
أجيل الطرف في طرفيه طولا ... وعرضا ما ارى الا رقاعا
فلست اشك ان قد كان دهرا ... لنوح في سفينته شراعا
وقد غنيتُ اذ ابصرت منه ... بقاياه على كتفي تداعى
« قفي قبل التفرق يا ضُباعا ... ولايكُ موقف منك الوداعا » [20]

انها لصورة رقيقة فذة وسخرية لاذعة حين يتصور المرء هذا الطيلسان البالي شراعا مرفوعا يسيّر سفينة نوح (ع) في قديم الزمان .

لقد اكثر الشاعر الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والشعر العربي وتمثل التاريخ العربي .. ولعل ذلك دليل ثقافته واستيعابه لمعارف عصره . وقد يكون قد نحا هذا المنحى ليلطف عبارته وليوضح صوره ، وكثيرا ما كان هذا الاقتباس يأخذ مكانه المناسب دونما ثقل او تكلف ، كقوله [21] :

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا ... أمرضته الاوجاع فهْو سقيم

---

(١٨) الاغاني ١٢٦/٢٠ .
(١٩) الوفيات ٩٣/٦ .
(٢٠) البيت للقطامي ديوانه ٣٧ . وضباعة : اسم امرأة .
(٢١) زهر الاداب ١٠٤٦/٢ .

فأذا ما لبسته قلت سبحا نك محيي العظام وهي رميم
أذكرتني بيتاً لحسان فيه حرق للفؤاد حين أقوم
« لو يدبُّ الحوليّ من ولد الذ رّ عليها لأندبتها الكلوم » [٢٢]

وهو ينظر في الشطر الثاني من البيت الثاني الى الاية الكريمة « قال من يحيي العظام وهي رميم » [٢٣] .

ومن حلو تضمينه الشعرى قوله [٢٤] :

يا طيلسانا اذا الالحاظ جلن به فعلة فعل سهام فيه تنتضل
لئن بليت فكم ابليت من أمم تترى أبادتهم ايامك الأُل
وكم رآك أخ لي ثم أنشدني «ودع هريرة ان الركب مرتحل» [٢٥]

فهو ثوب قديم كم ابلى من امم سابقة ماضية ، والشاعر بعد هذا يتندر بوداع مثل هذا الطيلسان الخلق البالي .

ومن تأثره بالحديث الشريف هذا البيتان اللذان عبّر فيهما عن قدم الطيلسان وسلخه التسعين من السنين :ـ

وطيلسان ان تأملته شققته بالطول والعرض
لو انه بعض بني آدم كان أسير الله في الارض

لأن في الخبر : « ان العبد اذا بلغ تسعين سنة كتبت الحسنات وكفرت عنه لسيئات وسمي اسير الله في الارض » [٢٦] .

---

(٢٢) البيت في ديوان حسان ٢٢٦ .
(٢٣) الاية ٧٨ من سورة يس .
(٢٤) زهر الاداب ١٠٤٦/٢ .
(٢٥) الشطر للاعشى ، ديوانه ٥٥ ، وعجزه « وهل تطيق وداعا ايها الرجل » .
(٢٦) ثمار القلوب ٤٨١ .

ومن بديع ما تحدث به عن بلى هذا الطيلسان وخوفه عليه من التمزق والتهرىء لقدمه من خلال اقتباس قرآني جميل قوله [٢٧] :

طيلسان لابن حرب جاءني ... قد قضى التمزيق منه وطره
فهو قد ادرك نوحاً فعسى ... عنده من علم نوح خبره
أبداً يقرأ من أبصره ... « أئذا كنا عظاماً نخره »

فالشطر الاخير تضمين كامل للاية الحادية عشرة من سورة النازعات •

وله يبالغ بلطف في كثرة رفوه حتى عاد الطيلسان كلا مرفوا ، اذ اختفى نسيجه الاصل الذى تمزق ودكت خيوطه كما دك الله الطور [٢٨] :

طيلسان لو كان لفظا ، اذن ما ... شك خلق في أنه بهتان
فهو كالطور[٢٩] أذ تجلى له الله ... ـه فدكت قواه والاركان
وكم رآك أخ لي ثم أنشدني ... بقي الرفو وانقضى الطيلسان

ان طيلسان صاحبنا اقدم من دهره ، فهو ضعيف كعجوز فانية ، كثير الرقاع كل رقعة من جنس ولون حتى لكأنه بلد سكنته اجناس مختلفة الالوان والاصول ، وهذا الطيلسان ليس شيئا يستحق الذم والتعريض ، فذلك الذم يكسبه زينة وتجميلا [٣٠] :

طيلسان ما زال اقدم في الدهـ ... ـر من الدهر ما لرفويه حيله
وترى ضعفه كضعف عجوز ... رثة الحال ذات فقر معيله
غمرته الرقاع فهو كمصر ... سكنته نزّاع كل قبيله
ان ازّينه يا ابن حرب بذمي ... فجرير [٣١] قد زان قبلي بجيله

---

(٢٧) زهر الاداب ١/٥٥٢ •
(٢٨) الوفيات ٦/٩٤ •
(٢٩) يشير الى قوله تعالى في سورة الاعراف الاية ١٤٣ « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا » •
(٣٠) زهر الاداب ٢/١٠٤٧ •
(٣١) هو جرير بن عبد البجلي وله صحبة •

ان شعره الطيلساني كثير ، فالثعالبي يقول : « من عجيب شأنه انه له في طيلسان خلعه عليه محمد بن حرب اربعين مقطوعة لاتخلو واحدة منها من معنى نادر ومثل سائر » [٣٢] ويقول في ثمار القلوب [٣٣] ايضا « قال في وصف الطيلسان مئتي مقطوعة لاتخلو واحدة منها من معنى بديع » وقال المبرد : « انشدنا (الحمدوني) فيه (الطيلسان) عشر مقطوعات فأستحلينا مذهبه فيها فجعلها فوق الخمسين فطارت كل مطار وسارت كل مسار » [٣٤] وفي فوات الوفيات [٣٥] : « وقد قال فيه خمسين مقطوعة » .

وقد يكون ابن الرومي تعقبه في وصفه لطيلسان ابن حرب في مقطوعتين وطيلسان بني نوبخت في مقطوعة ثالثة [٣٦] ، يقول بروكلمان في ترجمته لابن الرومي : « ويسير على غرار ابي علي الحمدوني شاعر العامة ، فيجاريه في شعره الذى يصف فيه الطيلسان الفاني » [٣٧] .

ولكن الثعالبي يشك في ذلك لان ابن الرومي شاعر مبدع لايقصر في مثل هذا المجال [٣٨] . وقد ادت كثرة النظم في طيلسان ابن حرب الى اختلاط نسبة بعض الشعر على الرواة ، فأبن خلكان ينسب الى الحمدوني هذين البيتين [٣٩] :

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا ... يزرع الرفو فيه وهو سباخ
مات رفاؤه ومات بنوه ... وبدى الشيب في بنيهم وشاخوا

---

(٣٢) خاص الخاص ١١٩ .
(٣٣) ٤٨١ .
(٣٤) زهر الاداب ١/ ٥٥٠ .
(٣٥) ٢٤ .
(٣٦) ديوانه ٣١٨ـ٣١٩ .
(٣٧) تاريخ الادب العربي ٢/ ٤٦ .
(٣٨) ثمار القلوب ٤٨٢ .
(٣٩) الوفيات ٦/ ٩٤ .

وهما ضمن ابيات في ديوان ابن الرومي [٤٠] ، ويعزز الثعالبي نسبتهما لابن الرومي ايضا اذ يرويهما له في ثمارة [٤١] .

وكما اكثر الحمدوني القول الساخر في الطيلسان ، فأنه سير مليح الشعر في شاة سعيد . يقول الثعالبي : « كان المثل يضرب بشاة منيع ثم تحول المثل الى شاة سعيد لكثرة ما قال الحمدوني فيها وتسييره المليح في وصف هزالها » [٤٢] .

لقد كانت شاة سعيد بائسة رعى الجوع لحمها وشحمها ولم يخلف وراءه غير كومة عظام نخرات في جلد [٤٣] :

صاح بي ابن سعيد ... من وراء الحجرات
قرب الناس الاضاحي ... فأنا قربت شاتي
شاة سوء من جلود ... وعظام نخرات
كلما قدمتها للـ ... ـذبح قالت وحياتي

وواضح اقتباسه للاية الكريمة « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات » في الشطر الثاني من البيت الاول .

وقد ينحو الشاعر منحا قصصيا مبسطا في عرضه لشدة هزل هذه الشاة وجوعها وتشوقها الى العلف وما حل بها من أذى وعذاب في سبيل الحصول على شيء منه ، اسمع قوله يتحدث بلسانها [٤٥] :

---

(٤٠) ٣١٨ .
(٤١) ٤٨٢ .
(٤٢) ثمار القلوب ٣٠١ .
(٤٣) كذلك .
(٤٤) سورة الحجرات الاية ٤ .
(٤٥) زهر الاداب ١/٥٥٠ .

لسعيد شويهة سلها الضر والعجف
قد تفنت وأبصرت رجلا حاملا علف
بأبي من بكفه برء ما بي من الانف
فأتاها مطعما وأتته لتعتلف
فتولى فأقبلت تتغنى من الاسف
ليته لم يكن وقف عذب القلب وانصرف

واطال الحديث عن ضعفها وجوعها الشديد ، حتى لقد انقطع بعرها فراحت تنهل دموعها متطلعة الى العلف في نومها بعد أن عدمته في يقظتها [٤٦] .

أبا سعيد لنا في شاتك العبر جاءت وما ان لها بول ولا بعر
وكيف تبعر شاة عندكم مكثت طعامها الابيضان الشمس والقمر
لو انها ابصرت في نومها علفا غنّت له ودموع العين تنهمر
يا مانعي لذة الدنيا بأجمعها اني ليفتنني من وجهك النظر

وكم منّت الكلاب انفسها بموت هذه الاضحية الهزيلة علها تولم وتطعم ، والشاعر هنا ، يكرر صورتها باكية متحدرة الدموع لرؤيتها علفا ، فلم ترد عنه ابتعادا لانه هواها الذى يوقفها عنده ، فليس لها عنه رجوع أو تحول [٤٧] :

أسعيد قد أعطيتني أضحية مكثت زمانا عندكم ما تُطعم
نضوًا تعاقرت الكلاب بها وقد شدّوا عليها كي تموت فيولموا

---

(٤٦) كذلك ١/٥٤٩ .
(٤٧) زهر الاداب ١/٥٤٩ .
(٤٨) الورقة . ابن الجراح ٦١ـ٦٢ وفي التحف والهدايا ان من اهدى الخروف لابي الخطاب هو معمر السدوسي .

مرت على علف فقامت لم ترم عنه وغنّت والمدامع تسجم
وقف الهوى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم

ويعود مرة اخرى ليؤكد بأن شاة سعيد هذه ليست الا مجموعة عظام معروقة كأنها عيدان شجر الارزن الصلبة ملفوفة في جلدها [٤٨] :

ما ارى لو ذبحت شاة سعيد حاصلا في يدى غير الاهاب
ليس الا عظامها لو تراها قلت : هذا ارازن في جراب

ويرى ابن الجراح في ورقته ان الحمدوني سرق قوله المتقدم من أبي الخطاب البهدلي وقد اهدى اليه رجل من أهل البصرة خروفا مهزولا فقال البهدلي :

اهدى الينا معمر خروفا كان زمانا عنده مكتوفا
يعلفه الكشيح والسفوفا والفارقون بعده مدوفا
حتى اذا ما صار مستجيفا أهدى فأهدى قصبا ملفوفا
جلل جلدا فوقه وصوفا وكان من فعاله موصوفا

وتأثر الحمدوني ببيتي البهدلي الاخيرين واضح ، واذا كان البهدلي شبه عظام الخروف بالقصب فصاحبنا شبهها كما تقدم بعصي شجر الارزن.

ولابد من الاشارة هنا الى ان الشاعر قد كرر في عباراته وصوره وتشبيهاته عند وصفه للطيلسان والشاة ، وهذا أمر طبيعي ، اذ انه اكثر الدوران حولهما والحديث فيهما . وكثير من الشعراء يقعون في مثل هذا التكرار حين يطيلون القول في موضوع ما ولزمن غير قصير . هذا الى جانب منحاه الشعبي في لغته وصوره في هذا المجال .

وللحمدوني وصف بديع وتشبيه جيد في العود اذ قال [٤٩] :

---

(٤٩) مروج الذهب ٤/٢٢٠ والحماسة الشجرية ٢/٨٧٢ ونهاية الارب ٥/١٢٤ وفي العقد الفريد ٦/٧٣ ينسبهما الى بعض الكتاب .

وناطق بلسان لا ضمير له كأنه فخذ نيطت الى قدمِ
يبدى ضمير سواه في الحديث كما يبدى ضمير سواه الخط بالقلمِ

وله يصف قميص أحدهم بالقدم بتعبير عذب جميل [٥٠] :

عليه قميص له واحد يقص عليك حديث الامم

ويقول ابو بكر الخوارزمي : " لم اسمع في وصف الطفيلي أبلغ من قول الحمدوني [٥١] :

أراك الدهر تطرق كل دار كأمر الله يحدث كل ليلة

واذا ما تجاوزنا وصفه الى الاغراض الشعرية الاخرى ، فأننا لن نظفر منها الا بشيء غير كثير .. والهجاء من الفنون الشعرية التي قال فيها الحمدوني ، من ذلك تعريضه بعبد الصمد بن المعذل حين قال [٥٢] :

ألذ من صحبة القناني او اقتراح على قيان
لكز فتىً من بنى لُكيز [٥٣] يهدى له أهون الهوان
أهوى له بازل خدِب [٥٤] يطحن قرينه بالجرانِ
فنال منه ثؤور قوم باليد طورا وباللسان
وكان يفسو فصار حقا يضرط من خوف مضرطان [٥٥]

وليس خافيا تعمده التناظر اللفظي في الشطر الاول من البيت الثاني بين لفظتي لكز ولكيز ، وفي الشطر الثاني من البيت الاخير بين يضرط

---

(٥٠) طبقات ابن المعتز ٣٧٢ .
(٥١) ثمار القلوب ٢٧ .
(٥٢) اغاني ١٣/٢٣٦ .
(٥٣) قوم عبدالصمد .
(٥٤) الخدب : الجمل الشديد الصلب .
(٥٥) مضرطان : ابو جعفر صديق الشاعر وابن المعذل .

ومضرطان ، مع ملاحظة ميله نحو سخيف اللفظ والعبارة وخصوصا في بيته الاخير شأنه في ذلك شأن معاصرية من شعراء الهجاء .

وقال في ذم ثقيل [٥٦] :

سألتك بالله الا صدقت وعلمي بأنك لا تصدق
أتبغض نفسك من ثقلها والا فأنت اذاً أحمق

وشاع في عصره ذم القيان والمغنيات ، فقال يذم قينة ذات صنان [٥٧] :

من كان لايدرى لها منزلا فقل له يمشي ويستشق

وقد يكون الحمدوني تأثر في بيته المتقدم بقول الشاعر [٥٨] :

امضي قدماً وشمَ فأن كرهت ريحة فشمَ

وذم ثيابه واشار الى نحسها بأسلوب ساخر هازىء ، وهو يتمثل التاريخ العربي مشيرا الى استسقاء عمر (ر) بالعباس عم النبي (ص) يوم حل الجدب وانقطع المطر [٥٩] .

قد قلت اذا خرجوا كي يستمطروا لا تقنطوا واستمطروا بثيابي
لو في حزيران هممت بغسلها غطّى ضياء الشمس جو كاب
فكأنها العباس يستسقي به عمر فيرويهم دعاء مجاب

ويبدو ان الحمدوني كان من الكتّاب الذين لم يفيدوا شيئا بحرفتهم فظل عيشه ضيقا ، ذلك اننا نجده يعرّض بقلمه ودواته اللذين لم يكسب من ورائهما غير التعب والنصب ، ولم يبلغا به ما كان يؤمله وتسمو اليه

---

(٥٦) زهر الاداب ٣١/٤٤٢ .
(٥٧) ، (٥٨) ثمار القلوب ٨٢ .

(٥٩) زهر الاداب ١/٥١٣ .

به همته .. فهو يقول [٦٠] :

ثنتان من ادوات العلم قد ثنتا	عنان شأوى عما رمت من همتي
اما الدواة فأدمى جرمها جسدى	وقلّم الحظ تحريقٌ من القلم
وحبّرت لي صحف الحرف محبرة	تذود عني سوآم المال والنعم
والعلم يعلم أني حين آخذه	لعصمتي نافر خلو من العصم

وواضحة هذه المقابلة اللفظية بين قلّم والقلم وبين حبّرت ومحبرة ، وبين العلم ويعلم وبين عصمتي والعصم . وهذا لون من الزخرف الشكلي كثيرا ما يتعمده الشاعر .

ان هذه الخيبة هي التي حملته على شكوى الدنيا التي لم يظفر منها بشيء ، اذ لم يستمتع كما استمتع غيره ، فهو يتحسر لانه واحد من الرقاب والنظّار الذين لا يكسبون غير الالم ، وهم يجدون غيرهم يعبون من الدنيا ولذائذها [٦١] :

من كان في الدنيا له شارة[٦٢]	فنحن من نظّارة الدنيا
نرمقها من كثب حسرة	كأننا لفظ بلا معنى

ولعله يعبر عن حرمانه وضيقه مع حذقه وتجويده في صنعته الكتابية في هذا البيت الذى يعده الثعالبي من الامثال السائرة [٦٣] :

ان المقدم في حذق بصنعته أنى توجّه فيها فهو محروم

البيت المتقدم يعبر عن شكوى مريرة نفثتها نفس الشاعر وهو يفصح

---

(٦٠) المصدر نفسه ١/٥١٢-٥١٣ .
(٦١) المصدر نفسه ١/٥١٣ .
(٦٢) زينة وجمال .
(٦٣) التمثيل والمحاضرة ٨٨ .

عن حاله وحال الاخرين من امثاله الكتّاب الذين لم يرفعهم حذقهم ، ولم تقدمه مهارته في فنهم الكتابي الرفيع .

ويبدو ان شاعرنا كان كثير الاصحاب حلو العشرة يطلب اللذة ويحب مجالس الانس ، قال يدعو الفضل بن محمد اليزيدى الشاعر الى مجلس سرور ونعيم [٦٤] :

يا أبا العباس انا ... في نعيم وسرور
ولدينا أسعد الامـ ... ـة في كل الامور
ما لنا عيب سوى بعـ ... ـدك فامنن بحضور

والشاعر بعد هذا من محبي الخمرة وعشاق الطرب والعيش المستطاب ، وها هو يتحدث عن مجلس شراب في دار ابن حرب (صاحب الطيلسان) اجتمعت فيه الكأس الدرية والمغنية الشجية في يوم ممطر ، وهم في انسهم ، اذا بمهلبي ثقيل يكدر عيشهم الصافي ، يدخل عليهم متبخترا ، ويسقط كأس الحمدوني من امامه ، فيغتاظ ويقول [٦٥] :

كدّر الله عيش من كدّر العيـ ... ـش فقد كان صافيا مستطابا
جاءنا والسماء تهطل بالغيـ ... ـث وقد طابق السماعُ الشرابا
كسر الكأس وهي كالكوكب الدْ ... رى ضمت من المدام وضابا

والحمدوني واحد من اولئك الشعراء الذين كانوا يستنجحون بشعرهم ، بلطيف الكلام ، وحلو التعبير ، ممزوجا بضرب من الحكمة البارعة والكلمة السائرة ، كالذى نقرأه له في الحسين بن ايوب والي البصرة [٦٦] :

---

(٦٤) معجم ياقوت ٦/١٤٣ .
(٦٥) زهر الاداب ٢/١٠٤٥ .
(٦٦) عيون الاخبار ٣/١٢٥ .

قل لابن ايوب قد اصبحت مأمولا ... لازال بابك مغشيا ومأهولا
ان كنت في عطلة فالعذر متصل ... وصل اذا كنت بالسلطان موصولا
شرُّ الاخلاء من ولىّ قفاه اذا ... كان المولىّ واعطى البشر معزولا
من لم يسمّن جوادا كان يركبه ... في الخصب قام به في الجدب مهزولا
افرُغ لحاجتنا ما دمت مشغولا ... لو قد فرغت اقد أُلفيت مبذولا

وكثيرة هي هذه الطباقات في الابيات المتقدمة بين الكلمات "المولى" و «معزول» ، وبين «يسمن» و (مهزول) وبين (الخصب والجدب) وبين «مشغول وفرغ» ، مع ملاحظة هذا الجناس بين « ولّى والمولى » ، فالشاعر اذن يقال لهذه المحسنات اللفظية في شعره مكثر منها دون ان يصل الى حد الملل والتكلف .

وأذا كانت المرأة في عصر الشاعر بعيدة الاثر في حياة الشعراء ، فلابد ان يكون الحمدوني من هؤلاء الذين شغفوا بالمرأة حبا وبجمالها تعلقا ، فله يتحدث عن حرمانه وهجر حبيبته ولقياهما في المنام قوله (٦٧) :

لم أنله فنلته في الاماني ... في منامي سراً من الهجران
واصل الحلم بيننا بعد هجر ... فأجتمعنا ونحن مفترقان
وكأن الارواح خافت رقيبا ... فطوت سرها عن الابدان

ويستهويه جمال الحبيبة وينتشي بلذيذ قربها فيقول متغزلا (٦٨) :

---

(٦٧) ديوان المعاني ٢٧٨/١ ، وطيف الخيال ١١١ . ويضيف المرتضى انها تروى لعبدالصمد بن المعذل . ومن الطريف انه ينسب البيتين الاولين لابن المعذل في صفحة ١٩٩ ، وينسب البيت الاخير للحمدوني ص ١١٩ وينسبها جميعا لابن المعذل ص ٢٦٤ ثم يعيد نسبتها جميعا للحمدوني ص ٢٦٤ .

(٦٨) البصائر والذخائر ٧٤ .

وليلة قصّر لي طولها　　بدر على غصن من الآس
بات يسقّيني والحاظه　　أسرع في عقلي من الكاس

واذا كن معظم ما وصلنا من شعر الحمدوني مقطوعات شعرية قصيرة ، فأن ابن عبد ربه يروى له قصيدة في ثمانية وعشرين بيتا ، عارض فيها القصيدة اللامية المنسوبة لتأبط شرا التي اولها [٦٩] :

لقتيلا دمه ما يطلّ　　انّ بالشعب الذى دون سلع

وفي هذه المعارضة دليل واضح على ان الشعراء المحدثين لم يكونوا منقطعين عن تراثنا الشعرى القديم ، وانما ظل ذلك التراث زادا فنيا خصبا يفيد منه الشعراء ثراء واسعا في اللغة والاسلوب والبناء والمعاني .

ويبدو ان فخر الشاعر بنفسه كان وراء هذه القصيدة . التي أبتدأها بالغزل ، اذ تغنى بجمال الحبيب ودلاله ، كما في قوله [٧٠] :

لك الحاظ مراض ودلّ　　غير ان الطرف عنها أكلّ
وأرى خديك وردا نظيرا　　جاده من دمع عيني طلّ

واذ يستمر في مثل هذا الغزل العذب الرقيق يتحول الى الفخر بعزيمته وهمته وما يتمتع به من شجاعة وبيان فيقول :ـ

ما مقامي وحسامي قاطع　　وسناني صارم ما يفل
وسناني مثل روضة حزن [٧١]　　اضحكتها ديمة تستهل
وليلي بين فكّي يعلو　　كل صعب ريّض فيذلّ
ثملا من خمرة العجز أسقى　　نهلا من بعده لي عللّ

---

(٦٩) حماسة ابي تمام ١/٣٤٢ .
(٧٠) العقد الفريد ٣/٢٤ .
(٧١) الحزن لبني يربوع وهو من اجل مرابع العرب .

ويواصل حديثه عن قوته وصلابته في سعيه من اجل ان يظفر بما يسعى اليه من وراء تصميمه على ان يضرب في ارض غير ارضه فيقول :

ويك ليس الليث للبث يضحي ... مخرجا من غيله وهو ذل
هو سيف غمده بردتاه ... ينتضيه الحزم حين يسل
لا يشك السمع حين يراه ... انه باليد سمع ازل [٧٢]
بين ثوبيه اخو عزمات ... يقيها الحادث المصمئل [٧٣]
ليس تنبو بي رحال وبيد ... ان نبا بي منزل ومحل
ان وخد العيس اثمار رزق ... يجتنيها المسهب المشمعل
لاتفلي حد عزمي بلوم ... انني للعزم والدهر خل

هو اذن يتهيأ بالحزم والقوة لمصارعة ما يقف في طريق ارادته وسعيه في الحياة ، وكيف لايقوى على خصومه وهو السيف الصارم حين يخرج من غمده ، ولا يكتفي بتشبيه نفسه بالسيف ، وانما يشبهها بقوتها وثباتها ـ مرة اخرى ـ بالذئب العنيف ، فهو رجل شديد ذو حزمات وعزمات ، لا يقعد على ذل وهوان ، وانما يسعى رغم المخاطر الى مراده راكبا الاهوال والمخاطر . وكأني بالشاعر هنا يتأثر ابا تمام في قصيدته البائية التي أولها [٧٤] :

أهن عوادى يوسف وصواحبه ... فعزماً فقدماً أدرك السؤال طالبه

فحديث الحمدوني بمضمونه ومعانيه ومقاصده قريب كل القرب مما اراده الطائي في تلك القصيدة .

---

(٧٢) السمع الازل : الذئب المتولد بين ذئب وضبع .
(٧٣) المصمئل : الشديد .
(٧٤) ديوانه ٤٣ .

واذ يواصل الفخر بنفسه ينحى في ذلك منحى حكميا اذ نراه يضرب الحكمة اللطيفة في ثنايا مفاخره كما في قوله :

فالفتى من ليس يرعى حماه ... طمعاً يوماً له يستذلُ
من اذا خطب أطلّ عليه ... فله صبر عليه مطلُ
يصحب الليل الوليد الى ان ... يهرم الليل وما ان يملُ
فأبتناء العزّ هدم المهارى ... وانحلال العدم سير وحل

وقصيدة الحمدوني اللامية هذه نموذج جيد لشعره ، ودليل على قدرة الشاعر في حوك الشعر المتين وانتقاء اللفظ الجزل المناسب للفخر العالي بالنفس ، وقد دفعه غرضه الشعرى الى ان يختار مجموعة من الالفاظ التي يبدو عليها شيء من الاغراب والصعوبة .

واخيرا ، فالذى تقدم من الامثلة الشعرية للحمدوني ينبيء عن شاعرية رقيقة عذبة ، وميل الى الدعابة وخفة الروح . هذا الى جانب رشاقة تعبيره وصوره الشعرية البديعة الجميلة ، مع ميل ملحوظ الى الزخارف اللفظية والمعنوية من جناس وطباق ، وهو يجمع الى كل هذا اقتباسا قرآنيا وشعريا وتمثلا تاريخيا زان شعره ، وزاد جودة صنعته الشعرية بألفاظ عذبة واضحة هي أثر من آثار حياته الحضرية .

مصادر البحث ومراجعـــه :

١ ـ الاغاني · الاصفهاني · ط · دار الكتب ·
٢ ـ البصائر والذخائر ، للتوحيدى · ط · لجنة التأليف والترجمـــة والنشر ١٩٥٣ ·
٣ ـ تاريخ الادب العربي · بروكلمان · ط · دار المعارف ·
٤ ـ التحف والهدايا · للخالديين · ط · دار المعارف · ١٩٥٦م ·
٥ ـ التشبيهات لابن ابي عون · ط · جامعة كمبرج ١٩٥٠ ·
٦ ـ ثمار القلوب ، الثعالبي · ط · الظاهر ، القاهرة ١٩٠٨م ·
٧ ـ الحماسة الشجرية ، ط ، دمشق ١٩٧٠ ·
٨ ـ حماسة ابي تمام · مكتبة النورى · دمشق ·
٩ ـ الحياة الادبية في العصر العباسي · محمد عبدالمنعم خفاجي ط · دار العهـد الجـــديد ١٩٥٤ ·
١٠ ـ خاص الخاص للثعالبي ، ط · مكتبة الحياة · بيروت ١٩٦٦ ·
١١ ـ ديوان الاعشى · المطبعة النموذجية ·
١٢ ـ ديوان حسان بن ثابت ط · دار احياء التراث العربي ـ بيروت ·
١٣ ـ ديوان ابن الرومي · تحقيق كيلاني ط · المكتبة التجارية ·
١٤ ـ ديوان القطامي ، ط · لايدن ·
١٥ ـ ديوان ابي تمام · ط بيروت ١٩٦٨ ·
١٦ ـ ديوان المعاني للعسكرى ، ط · مكتبة القدسي ·
١٧ ـ ذيل زهر الاداب للحصرى ، ط · الرحمانية ١٣٥٣ هـ ·
١٨ ـ زهر الاداب للحصرى ، ط · البابي الحلبي ·
١٩ ـ طبقات الشعراء · ابن المعتز ط · دار المعارف ١٩٥٦ م ·
٢٠ ـ طيف الخيال للمرتضى ، ط · البابي الحلبي ·
٢١ ـ العصر العباسي الاول ـ شوقي ضيف · ط · دار المعارف ١٩٦٩ ·
٢٢ ـ العقد الفريد ، ابن عبد ربه ط · لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ ·
٢٣ ـ عيون الاخبار · ابن قتيبة ط · المؤسسة المصرية العامة ·
٢٤ ـ فوات الوفيات ، ابن شاكر الكتبي ط · السعادة ·